الفلسفة عند اليهود

ان حكماء الامة الاسرائيلية انصرفوا خلال عصورها الاولى الى الانذار والتعليم بمعرفة الله تعالى والقول بوحدانيته وخلقه الكائنات كلها ولم يذهبوا الى ما وراء ذلك من البحث في صفات الخالق وحقيقة النفس وما اشبه من النظريات التي ملأت كتب الهند واليونان وكل امة كان لها من الفلسفة نصيب وافر اي انهم وقفوا عند حد الايمان المطلق غير مستمر الى الابحاث العلمية ولا متبع طريقة فلسفية

الا انهم في الاحايين كانوا يحومون حول المباحث النظرية ولكنهم لم يكرثوا ليدخلوها من ابوابها سالكين اليها طريق الدليل والبرهان بل كانوا يقولون بالرأي ويدعمونه عوض البرهان بالاستناد الى الوحي . مثال ذلك مسألة الخير والشر فانهم قالوا ان الله تعالى خير مطلق ولا يصدر عنه الا الخير واستدلوا على ذلك بما ورد في الكتاب من ان الله كان اذا خلق شيئاً رآه حسناً . واذا اشكل عليهم حل مسألة الشر وخافوا ان يقودهم الكلام فيه الى الوقوع في الخطإ قالوا ان الشر من صنعة البشر يتولد من انتصار المبدإ المادي على المبدإ العقلي ولما كان الانسان حرًّا في اعماله وارادته صار من الواجب عليه ان يجعل اعماله منطبقة على مبدإ الخير انساعي لئلا تغلبه المادة فيصير عبداً للشر . وهذا القول يرتبط ارتباطاً قوياً بالمبدإ القائل بحرية الارادة الذي هو من المبادىء الاساسية في العقائد الموسوية على ما يؤخذ من سفر التثنية حيث قيل انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر

وسار حكماء اليهود على سبل الكثير من حكماء الشرق في تمثيل الحكمة في الشكل الشعري او بما يقرب من نوعه من الامثال والاحاجي لاسيما وانهم كانوا اذا اقتربوا من النظريات الفلسفية المحضة ارجعوها الى دائرة الدين وجعلوا الحكم فيها فوق مدارك العقل اخيراً بما ورد في سفر ايوب من اجتماع الحكماء ومناظرتهم في مسألة العناية الالهية والقدر كيف ظهر الله في عاصفة لايوب واظهر له قصر المدارك البشرية عن ادراك اسرار الطبيعة ووجوب خضوع الانسان لله والتسليم لارادته الى غير ذلك مما يذهب بالقضايا الفلسفية الى الوجهة الدينية . على ان الجلاء البابلي ادّى الى اختلاط اليهود بغاليهم والاطلاع على حكمتهم وحكمة الفرس مجاوريهم ولا بدّ لهذا الاختلاط من ان ينقل شيئاً من تمدن الكلدان والفرس الى عقائد اليهود وعاداتهم لما يحدث المحيط الكبير عادةً في النسمة الصغرى من التغيير والتكييف في اخلاقها وعاداتها وعقائدها وسائر شؤونها الاجتماعية لاسيما وان اليهود لم يروا في معتقدات

غالبيهم ما يدعو الى النفرة والاشمئزاز فانفرس على ما شذ من كتابهم الديني التدافعا قالوا بالوحدانية وان لم تكن مطلقة وشابهوا اليهود من حيث الكراهة الوثنية فحدث بهم تلك المشابهة الى التدرب والامتزاج

الا أن الفرس انفسهم لم يبلغوا الشأو العظيم من الفلسفة بحيث يتصل من فيضها باليهود ما يكفي لادخال الابحاث النظرية في كتاباتهم . يؤيد ذلك خلو الاسفار المكتوبة بعد الجلاء من روح الحكمة والكلام فيما وراء الطبيعة وبقاؤها من هذه الوجهة على ما كانت عليه قبل الجلاء . ولما تسوّد اليونان سوريا وانتشرت فيها معارفهم وآدابهم الفلسفية ثارت في اليهود الرغبة في طلب العلم وارتياد الفلسفة اعلاء لقدرهم في عيون الفاتحين الذين كانوا يزدرون بعوائدهم ويمتهنون آدابهم لذلك عدل اليهود الى الكتب المقدسة فشرحوها واسهبوا في تفسير غوامضها مدخلين اليها شيئاً من الآراء الفلسفية اليونانية التي كانت لذلك العهد زاهرة في الاسكندرية

وقد ذكر لنا التاريخ اسماء كثيرين من علماء اليهود الذين اشتهروا في الفلسفة وساروا فيها شوطاً بعيداً وفسروا النصوص الكتابية بالاراء الفلسفية اليونانية تفسيراً دلّ على تضلعهم من آراء افلاطون وفيثاغورس وغيرهما من الحكماء السابقين . ومما يذكر ان الذين تنوقوا في دراسة الفلسفة المنتخبة Eclectique من اليهود غالوا في التفاخر بعقائدهم والقول بانها مصدر الفلسفة في العالم وان فيثاغورس وافلاطون وارسطوطاليس وغيرهم من اقطاب العلم مروا في تطوافهم على بلاد اسرائيل واخذوا عن حكمائها الاقدمين العلم والحكمة

واما يهود فلسطين فظلوا على طاعة البطالسة ملوك مصر حوالي مئة سنة اقتبسوا في خلالها شيئاً كثيراً من الفنون والمعارف اليونانية حتى اذا استحوذ السلوقيون ملوك سوريا على فلسطين كان معظم اليهود قد اخذوا التمدن اليوناني واقتبسوا من ارائه ما كاد يضر بالديانة الاسرائيلية لولا النهضة التي حدثت على عهد المكابيين ومع ذلك ظلّ المنطق اليوناني الغاية التي يرمي اليها عقلاء اليهود والحلبة التي تتجارى في مضمارها سوابق همهم

يومئذٍ نبغ في فلسطين فرقتان الفريسية والصدوقية فاحداهما الفريسية كانت تقبل كل العقائد والمبادىء والطقوس التي كرّ عليها الدهر وصارت مقدسة بحكم الزمن وشرعت تدعي القدامة والمصدر الالهي وان ما اتصل بها كان تقليداً شفاهياً من الاباء والجدود . ويذهب البعض ان تعاليم هذه الفرقة مأخوذ معظمها عن تعاليم الكلدان والفرس . وكيف كان الامر فان لشرعتها في التفسير يداً في احياء اللغة والاداب العبرانية وفي انهاض العقول النيرة

الى خوض المباحث اللاهوتية والنظريات الفلسفية

اما الفرقة الثانية وهي السدوقية فلم تغل بالتقليد الشفاهي ويكن مبدأ لم يكن معدوناً في اسفار موسى فجردوا بذلك العقائد الموسوية مما يمكن ان يضاف اليها من الزوائد وتوسعوا في الاحتفاظ حتى انكروا خلود النفس ومداخلة العناية الالهية في اعمال البشر زاعمين ان هذه المداخلة تنافي القول بان الانسان فاعل مختار

وقد نبغ من الفريسيين قوم يسمح تسميتهم بالحكماء العاملين وكان مذهبهم القول بالمبادىء والرسوم والاداب الفريسية ولم يقفوا وقوف الفريسيين عند حد القول وانما قرنوه بالعمل بالزهد والعفة والتقشف حتى علق بهم عامة الناس واحلوهم المكان الرفيع من التجلة والاكرام. ولا غرو فالعامة تأخذهم الظواهر في كل زمان ومكان

وعرف رجال هذه الفئة بالاسينيين تسمية ربما كانت مشتقة من الكلمة السريانية اسايا بمعنى أساة اي اطباء وقد ذهب البعض ان الاسينيين فرع من الجمعية اليهودية المصرية المسماة بالثيرابيون على ان الذين بحثوا في سنن هذه الفرقة لم يروا بينها وبين الاسينية مشابهة كبرى تجعل الصلة قوية وان المصرية كانت تختار العزلة والعفاف والتأملات والاسينية لم ترتض الانفراد بل حسبت اتباع الفضيلة واعمل بها بين الناس اجزل فائدة للجتمع لاسيما وان فيلون هو المرجع فيما يقال عن هاتين الفرقتين وقد كتب عنهما مطولاً ومع ذلك لم يذكر من امر الصطما شيئاً

وقد قيل ان الاسينية كانت تمتاز عن سواها من الفرق اليهودية بحب اعضائها بعضهم لبعض حباً شديداً وانها كانت تستكف الملاذ وتحسب امتلاك هوى النفس وغلبة الشهوات فضيلة كبرى وتأبى الزواج لكنها تختار اتجباء من صغار اولاد الآخرين وتقدم على تربيتهم وانشائهم على منهاجها ومع هذا لا يكرون على الناس فائدة الزواج بايلاد البنين حفظاً للنسل وانما يحترسون من مسلك النساء لاعتقادهم انهن لا يحفظن الامانة للرجل. وكانوا يحتقرون الغنى ويعيشون بالاشتراك فلا تجد واحداً منهم يملك اكثر مما يملك الآخر واذا اراد واحد من الناس الدخول في معالمهم فكان عليه ان يجعل كل ما ملكت يداه مشتركاً بين الجماعة وبهذا لا تجد بينهم ظاهر الفقر الناشيء او الغنى الطائل بل كانت ثروة كل واحد منهم كأنها ثروة الجميع وهم قيمون على مصالحهم العامة ولا يسوغ لواحد منهم ان ينظر في مصلحته الخاصة وانما ينظر في ما يعود نفعه على مصلحة الجمهور الى غير ذلك من ضروب العيشة الاشتراكية التي يضيق بنا المقام عن اشباع الكلام فيها

وغاية ما يقال عن الفلسفة اليهودية انها جمعت بين الافكار الشرقية والغربية وبعبارة اوضح انها كانت الحلقة المتوسطة التي بها اتصلت الابحاث النظرية الشرقية بالفلسفة الغربية. وقد قام اليهود بهذا العمل الاتصالي غير مرة في ازمنة مختلفة من التاريخ

وفي العصور الاولى من الزمن المسيحي اسرف نواب قياصرة الروم في ظلم اليهود واعنائهم حتى لجأوا الى العصيان وكانت الحرب بينهم هائلة دوّخ الرومان في غضونها بلاد فلسطين وحصروا اورشليم سنة ٧٠ م. ثم دخلوها عنوة ونكّلوا باهلها تنكيلاً شنيعاً ولم يطل الامر حتى خرج اليهود عن طاعة الرومان ثانية ايام ادريانوس سنة ١٣٥ م فاعمل بهم السيف وفرّق شملهم فتشتتوا في انحاء الارض . يومئذ علم اليهود انهُ يستحيل عليهم اتخاذ اورشليم عاصمة دينية لذلك اتجهت خواطرهم الى جمع كلمتهم تحت لواء الدين وتعزيز الوحدة الدينية باحياء وتدوين التعاليم السماعية ضمن كتاب فوضع البقية الباقية من علماء كهانهم في اورشليم كتاباً سموهُ المشنه وهو متن التلمود فكان ضميمة على اسفارهم القديمة ثم توالى على مدارسهم القرنان الرابع والخامس وفي تضاعيفهما من حملات التعصب الذميم ما ادى باليهودية الى الخراب وادى الى توسيع مجموعة المشنه فرضموا الجمارة وهي شرح المشنه ثم توسعوا في الجمارة فالفوا التلمود واودعوهُ مجموع تعاليمهم من مفاد منقول المعتقد ومنزل الاسفار فكان خلاصة كتبهم الدينية وخزانة شرائعهم وعلومهم

ولقد مرّت القرون الاولى من التاريخ المسيحي على اليهود وهم بعيدون عن المباحث الفلسفية والاشتغال بالعلم يؤيد هذا القول خلو المشنه والتلمود من الابحاث النظرية والكلام فيما وراء الطبيعة الا ان قومًا منهم انفوا البقاء تحت النير الروماني يقاسون جور التعصب واعتساف دعاتهِ فغادروا بلاد العرب قبل الاسلام واستوطنوها وتوفرت بينهم وبين الاهلين اسباب الائتلاف لما بينهم من التشابه في اللغة والتقارب في الجنس وعدم وجود دولة سيفية العرب جامعة تفرق بين الاصيل والدخيل

ولما جاء الاسلام وامتدت فتوحاتهُ الى شرق الارض وغربها لم تكن وطأتهُ ثقيلة على اليهود الذين كانوا ناقمين من جور الرومان والفرس فرحبوا بالفاتحين وانتعشت ارواحهم وتجددت قواهم وانصرفت جماعة منهم للاشتغال بالعلم والادب. ومما زادهم رغبةً في ذلك اقبال بعض الخلفاء عليهم كما اقبلوا على علماء النصارى فنبغ منهم عدد من العلماء والاطباء وازداد عدد نابغيهم في الدولة العباسية واشتهر منهم كثيرون كسعدية بن يوسف الفيومي المعروف عند العرب بسعيد بن يعقوب الفيومي وشموئيل بن حفني وغيرهم كثير من رجال العلم والادب

وفي سنة ٧٦٥ م ايام الخليفة العباسي جعفر ابي منصور ظهرت فرقة جديدة في بابل انشأها عنان بن داود وتعرف بالقرائين كانت غايتها التخلص من تسود الربانية وتحرير اليهود من نير التقليد واتباع احكام العقل والعمل بالامتحان لا بالاستناد الى فلان او فلان وبما ورد في النصوص المقدسة لا بالسنن الموضوعة في المشنة ومع هذا لم يحذ زعيم القرائين عنان بن داود حذو العدوتيين القدماء الذين قالوا بوجوب نبذ كل تفسير وتقليد وانما قال بوجوب تطبيق كل التفاسير والتقاليد على احكام العقل وما كان منها لا ينطبق على احكامه انطباقاً تاماً لا يعمل به ولا يعوّل عليه وكأنه اراد بذلك الخروج من دائرة الايمان وهو التسليم المطلق الى دار الفلسفة حيث الدليل والبرهان

على ان الربانية واصحاب التلمود الذين لم يرضوا عن اعمال فرقة القرائين فحجروا على منوالهم واتبعوا سبلهم في ادعام العقائد الدينية بالادلة المستقاة من فلسفة تلك الايام وحسبك ان كبير علمائهم الذائع الصيت سعيد بن يعقوب الفيومي رئيس مدرسة سورا (بلدة قريبة من بغداد) محط رحال الربانية ومصدر قوتهم وضع كتاباً باللغة العربية في العقائد والافكار قال فيه بوجوب اتباع احكام العقل في العقائد وانه يحق للانسان فحص القضايا الدينية بل ان ذلك مطلوب منه وواجب عليه وان العقل الصحيح يرشد الانسان الى الحقائق التي يعلّمها الوحي ولكن الوحي وجد وكان وجوده ضرورياً لكي يوصل الانسان بسرعة الى ادراك تلك الحقائق التي لو تركت للعقل لاقتضى له حق يصل الى ادراكها عناء عظيم وزمن طويل

وحدث بعد موت سعدية بقليل ان ازدهرت الفلسفة العربية في الاندلس واتصلت شعلتها بيهود تلك البلاد فخرجوا عن السلطة الدينية سلطة مدرسة سورا وارادوا ان يستبدلوها بمدرسة جديدة يشيدونها بمدينة قرطبة ويعيدون بادارتها الى خيرة رجال العلم منهم حيث تلقن فيها انواع العلوم والفلسفة والفنون الادبية التي اهملها يهود المشرق

قامت هذه المدرسة في قرطبة وانّها طلاب العلم من كل فج عميق وكان يومئذ من علماء اليهود طبيب بارع مقرب من الخليفة عبد الرحمن الثالث فسعى الى تنمية المدرسة وتعظيم شأنها ولم يمض عليها الزمن الطويل حتى ذاعت شهرتها وعرف رجالها بالتفوق في العلم والادب ونبغ منها جماعة من اكابر اهل العلم انصرفوا الى درس الفلسفة المشائية ووضعوا فيها الكتب النفيسة التي لم تزل منها بقية في مكاتب اوربا شاهدة بما وصلوا اليه من العلم والحكمة

على ان منتهى فلاحهم وازدهارهم كان في ايام الدولة الامرية بالاندلس وفي بعض المحال المجاورة لها في اطراف اسبانيا من الممالك المسيحية واشهر فلاسفتهم فيها موسى بن ميمون

الذي ولد في قرطبة سنة ١١٣٥ م وبلغ شأنه في درس اللاهوت وسائر العلوم المعروفة يومئذ عند اليهود وكان يحضر ايضاً بعد ذلك على اساتذة العرب ويكب على الدرس والتحصيل حتى بلغ من الحكمة شأواً بعيداً وصيتاً ذائعاً فلقبوه بموسى الثاني وافلاطون اليهود وكان كل اجتهاده ان يوفق بين الفلسفة المشائية والاسفار المقدسة وان يحمل الطلبة على اخضاع ابحاثهم لاحكام العقل. وفي ايامه كان انقراض الدولة الاموية بالاندلس وعلى اثر انقراضها اصابت الشدة اليهود ففرَّ الى مصر واتصل بصلاح الدين وصار طبيبهُ

وفي اواخر القرن الخامس عشر سنة ١٤٩٢ م طرد اليهود من بلاد اسبانيا فاضمحلت بطردهم الفلسفة اليهودية على ان اليهود كأمة او كجمعية دينية لم تشغل في تاريخ الفلسفة المكان الاول وانما كان لها الحل الثاني ومع ذلك فقد شارك اليهود العرب بالفخر اذ حفظا معاً العلم والفلسفة في عصر كانت اوربا فيهِ تائهة في ظلمات الجهالة

م - ن

الارادة

" لو ارتفقت السموات والارض على رجل تحركت ارادتهُ لفلقهما ووجد من بينهما مخرجا "

ما من طائفة اختل امرها وضل سعيها حتى اخذتها الرجفة وركبها الهول واصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس الاَّ وقد خبت من قبل زناد اختيارها وتراخت عزيمتها

وما من امة تقوض مجدها وتل عرشها وبادت مكانتها والتزعت اركانها واصبحت لا ترى الاَّ مساكنها الاَّ وقد خمدت همتها وماتت ارادتها فتقاعدت عن المهمات وتربعت الصدفات وقالت انَّا ههنا قاعدون حتى يأتي الله بفتح من عندهِ

تلك حقائق راهنة في المدنية لا تتغير ومبادئ ثابتة في العمران لا تتبدل وسنَّة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تحويلاً

وكأني بالقارئ يسأل عن ماهية الارادة لا يعرف لها معنىً ولا يدرك لها كنهاً لما رسخ في ذهنهِ وطبع على قلبهِ من ان " الانسان مسيَّر لا اختيار لهُ يقضي على حكم القضا وتجاري القدر " . نعم ان الانسان يجري على احكام القضاء الاَّ ان الله هداه النجدين العقل والهدى واودع فيهِ قوة تشرك العقل في امرها ألا وهي الارادة حيز الهمة والعزم ومعهد الحرية ومقيل القوة والمروءة وموطن الغيرة والحمية ومبيت الانفة والاباء ومقام الاقدام والشهامة

فالارادة ايها القارئ الكريم خطة ثالثة لروح تحدو بالمرء الى مطالب العقل وقد يعرض